المعجم العربي : (النشأة والتطور) .

مراحل التأليف المعجمي

الموضوعات والمعاني:

إذا تصفحنا تاريخ نشأة المعجم العربي، وجدنا الأسباب لا تختلف كثيرا عن أسباب نشأة غيره من علوم العربية، ذاك أن اتّساع رقعة الإسلام أدّى إلى كثرة المسلمين من أصول غير عربية، واختلاط هذه الأمم والشّعوب بالعرب أدّى إلى نشوء لغة مختلطة هجينة، فخيف على العربية من ضياع مفرداتها، فقام الرعيل الأول من العلماء بجمع اللغة ممّن لا يشكوّن في عربيّتهم من العرب الذين لم يخالط لسانهم لسان الأعاجم .ولقد اتّصف منهجهم بالصّر ا مة الشّديدة في الأخذ، فربّما تركوا كلمة لمجرّد الشكّ في صاحبها شكّا ولو بسيطا .وحين نتأمّل في أسماء بعض المعجمات نتأكّد من صدق توجّههم في إ ا زلة كلّ شائبة قد تشوب اللسان العربي .وما تسمية "تهذيب اللغة "أو" الصّحاح "إلاّ دليل على ذلك.

على أنّ البداية الأولى يمكن عدّها مع ما كان يفعله حبر الأمّة عبد الله بن عبّاس، من شرحه لما استعصى على العرب والمسلمين من كلام في القرآن الكريم،

فيذلّل لهم فهمه بشواهد من الشعر العربي، وما تلاه، بعد ذلك ممّا عرف بمسائل نافع ابن الأزرق.

لقد انطلق هؤلاء العلماء إلى البادية، حيث اللسان العربي الصّرف، واللغة العربية الخالصة، ودوّنوا كلّ ما سمعوه من أولئك العرب الخلّص .ولم يكن جمعهم –في البداية –منظّما، إذ يمكن القول إن حركة التأليف المعجمي قد مرّت بمرحلتين:

المرحلة الأولى:

كانت بغرض جمع أكبر ما صحّ من كلام العرب، وقد بدأ الرواة يؤلفون رسائل صغيرة في اللغة، كانت تمتاز بالبساطة والعفويّة، شأن أيّ عمل في مراحله.

ومن أهمّ ما اعتُمد كأساس للتّصنيف في هذه المرحلة.

الندرة والغرابة:

إذ لجأ بعض العلماء إلى جمع الألفاظ الغريبة النادرة في كتاب واحد دون تنسيق أو ترتيب، فإذا احتاج المرء إلى معنى كلمة غريبة أو نادرة، كان عليه أن يطالع ذلك الكتاب كله علّه يجد ضالته فيه.

ويمكن التمثيل لهذا النمط من التأليف بأبي زيد الأنصاري 215) هـ (في كتابه "النوادر في اللغة"، وفي هذا الكتاب نجد أبواب متعددة مثل" :باب الشعر "أو" باب الرجز "أو" باب النوادر"، وجاءت هذه الأبواب دون تنسيق أو تبويب..

2–الموضوعات والمعاني:

وهي تلك الرسائل الصغيرة التي جَمَعَتْ بعض ألفاظ اللغة ورتبتها تبعاً لموضوع من الموضوعات أو معنى من المعاني العامة، ومن ذلك كتاب خلْق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الأنواء، وكتاب خَلْق الفرس، وكتاب الإبل، وكتاب الشاء، وكتاب النخل والكرم، وكتاب النبات والشجر، للأصمعي 213 هـ،وكتاب القوس والرمح،وكتاب المياه، وكتاب اللبأ واللبن، وكتاب المطر، لأبي زيد الأنصاري215 هـ.وهذه الكتب عبارة عن رسائل صغيرة حاولت أن تجمع الألفاظ التي تختص بمعنى من المعاني، كالألفاظ التي تتصل بالنبات، أو التي تتعلق بالإبل، أو التي تخت باللبن، وغير ذلك.

3–الأضداد:

وقد بُني هذا النّمط على جمع الألفاظ التي تُعبّر عن المعنى وضدّه، كالأضداد للأصمعي) 213هـ(، والأضداد لابن السكيت(244 هـ) والأضداد لأبي حاتم السجستاني 248) هـ(، إذ تُذْكَر الكلمة بمعنى مع شاهد يؤيد ذلك، ثم بالمعنى الآخر مع شاهد يؤيده أيضا.

4–مثلث الكلام:

ويراد بالمثلث الألفاظُ التي وردت على ثلاث حركات بمعان مختلفة، ومن أمثلة

ذلك :السِّهام بالكسر :النبال جمع السّهم، والسُّهام بالضم :الضّمُور، أو داءٌ يأخذ الإبل،والسّهام بالفتح :وهَجُ الصيف .ولعل أول من ألف في مثلث الكلام قطرب 206) هـ (في كتابه المعروف ب" مثلثات قطرب."

5–الأفعال ذات الاشتقاق الواحد:

وسبق إلى جمع اللغة على هذا النمط قطرب 206) هـ (في كتابه" فَعَل وأَفْعَل"، ثم ألف الزجّاج 310) هـ (فيما بعد كتابه" فَعَلْتُ وأَفْعَلْت "فكان لكتابه شهرة واسعة للتأليف على هذا النمط، وهنا أصبحت صيغة الألفاظ هي الرابط الوحيد في تصنيفها.

6–الحروف:

وهو تأليف بعض الرسائل التي جمعت الألفاظ ورتبتها بحسب الحروف، ويمثل ذلك كتاب الهمز لأبي زيد الأنصاري 215) هـ (والكتاب مقسم إلى أبواب لا تسمية لها، وكل باب يورد الألفاظ التي تنتهي بالهمز، ولكن الأبواب لم ترتب على حروف المعجم، وإنما وردت على هذا النحو" :الألفاظ التي تبدأ بالنون وتنتهي بالهمز"، ثم)الألفاظ التي تبدأ بالباء وتنتهي بالهمز(، ثم) الألفاظ التي تبدأ بالراء(، ثم) التي تبدأبالزاي(،)ثم التي تبدأ بالذال (فالدال فالسين فالشين فالكاف ..الخ

ونجد في هذه المرحلة أنماطاً متعددة المناهج، يمكن أن نصنفها في ثلاثة:

1–نجد الأمر قد بدأ بمنهج صَنّف أصول الألفاظ حسب مخارج الحروف، وهو ما جاء به الخليل بن أحمد الفراهيدي 170) هـ (في كتاب العين .وقد كان أسبق علماء العربية إلى وضع منهج لاستيعاب اللغة كلها في كتاب واحد.

2–ثم تطوّر الأمر إلى منهج آخر رتب الألفاظ على حروف المعجم، وراعى أوائل الأصول، وهو ما جاء به ابن دريد 332) هـ (في كتاب الجمهرة .وابن دريد في الجمهرة سار بمنهج الخليل نحو التبسيط، إلاّ أنه لم يقطع شوطاً بعيداً في ذلك، ففي مقدمته أشار إلى من تقدّمه، ثم ذكر الخليل مُتلطّفاً، قال..." :فارتجلت الْكتاب الْمَنْسُوب إِلَى جمهرة اللُّغَة،

وابتدأت فِيهِ بِذكر الْحُرُوف الْمُعْجَمَة الَّتِي هِيَ أصل تفرع مِنْهُ جَمِيع كَلَام الْعَرَب، وَعَلَيْهَا مدَار تأليفه وإليها مآل أبنيته، وَبهَا معرفَة متقاربه من متباينه ومنقاده من جامحه .وَلم أجر فِي إنْشَاء هَذَا الْكتاب إِلَى الإز راء بعلمائنا وَلَا الطعْن على أسلافنا، وأنى يكون ذَلِك؟ وَإِنَّمَا على مثالهم نحتذي، وبسبلهم نقتدي، وعَلى مَا أصلوا نبتني .وَقد ألف أَبُو عبد الرَّحْمَن الْخَلِيل بن أَحْمد الفراهيدي، رضوَان الله عَلَيْهِ، كتاب الْعين، فأتعب من تصدى لغايته، وعنى من سما إِلَى نهايته، فالمنصف لَهُ بالغلب معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده لَهُ تبع أقرّ بذلك أم جحد، وَلكنه رَحمَه الله ألف كِتَابه مشاكلا لثقوب فهمه وذكاء فطنته وحدة أذهان أهل دهره "([1])

3-أمّا ا لنهج ا لثّالث فقد ر تّب أصول الألفاظ على حروف المعجم، و ا رعى أواخر الأصول، وهو ما ظهر على يد الجوهري 393) هـ (في الصحاح .وهو منهج أقلّ مايقال عنه إنّه ميسّر سهل التناول، فآخر الكلمة للباب وأوّلها للفصل، على عدد حروف المعجم . وقد سار على نهجه أكثر المعجمات العربيّة شهرة، ألا وهو لسان العرب لابن منظور 711) هـ(، وكذلك القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادي 817) هـ(، وتاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي 1170) هـ .فهذه المعجمات جميعا قدأخذت بمنهج "الصحاح."

و دراسة هذه الأنماط من المعجمات توضح ثراء وغنىً في المناهج وإبداعا في العمل المعجمي، وتكشف عن التطور الذي ا رفق البحث عن المنهج الميّسر، وتُبيّن ما حقّقه كلٌّ منها للغة العربية وأصحابها من فائدة ما ا زلت تُقطَف ثمارها حتى اليوم.وما وصلنا من معاجم من عصر الخليل إلى الآن يمكن حصره في هذه الأشكال الثّلاثة، على اختلاف في المنهج المتّبع،

1- جمهرة اللغة لابن دريد، 40/1.

حيث وصلنا في الأخير إلى طغيان الطريقة التي تعتمد على الترتيب الهجائي المبني على أوائل الأصول، حتّى إنّ معجمً ا مثل لسان العرب وغيره، قد أعيد ترتيبه ليوافق هذا النهج.

وبالإضافة إلى هذا النوع من المعجمات المرتّبة– أساسا –على ما يناسب شكل الكلمات، وهي لذلك تسمّى معجمات الألفاظ أو المعجمات المجنّسة، هناك– أيضا – مايسمّى بالمعجمات المبوّبة أو معجمات المعاني، وهي تلك التي تراعي في ترتيب كلماتها المعنى، فتجمع الألفاظ في أبواب، منها المخصّص لابن سيده الأندلسي الضّرير 458 هـ).